كتب

في كتابه الصادر حديثاً، يعتمد الباحث فهد عاشور على النقوش الأثرية حصراً، في نفيّ وجود كتابات باللغة الفُصحى منذ القرن الثامن قبل الميلاد وحتى القرن السادس الميلادي، بل كُتبت جميعها بلهجات عربية قديمة مختلطة بالآرامية أو لهجات بدوية لا يزال بعضها حيّاً

العربية كما صوّرتها النقوش القديمة

الفصحى هل اخترعها العباسيون؟

محمود منير

لم تنه التعديلات التي أجراها طه حسين على كتابه «في الشعر الجاهلي» (1926)، الجدل حول آرائه الواردة في الطبعة الأولى في القصائد التي تُنسب إلى العرب ما قبل الإسلام، كونها منحولة تمثّل حياة المسلمين، ولا تعبّر عن نظرة أسلافهم الفكرية والدينية ولا تأخذ مبنى لغتهم القديمة. تركت تلك الخلاصات باب الشك مفتوحاً، رغم تعدّد الاعتراضات عليها، وهو ما يعيد طرحه الباحث فهد عاشور في دراسة مستفيضة لحوالي مئة ألف نقش أثري يعود أقدمها، إلى القرن الثامن قبل الميلاد. تمثّل هذه النقوش صدمة معرفية ضمن مستويات متعدّدة، إذ تمّ العثور عليها في الباديتين السورية والأردنية (وأجزاء محدودة من شمال غرب السعودية) قبل انتشارها بعد فترة متأخرة نسبياً إلى بقية أنحاء الجزيرة العربية، وأنها كُتبت بلهجات عربية قديمة مختلطة أو متأثّرة بالآرامية أو لهجات بدوية لا يزال بعضها حيّاً حتى اليوم، بالإضافة إلى الكتابة بلهجات شديدة الشبه باللهجات العامية المعاصرة في بلاد الشام مع بعض السمات الفصيحة، كما تبيّنها أولى البرديات الإسلامية، وأنه لم يوجد فيها جميعاً بيتُ شعرٍ جاهلي واحد كما تمّ تدوينه في عهد العباسيين.

يفكّك عاشور في كتابه «الفصحى.. لغة مصطنعة» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2025)، جملة مسلّمات تتعلّق بمفاهيم الفصاحة، التي يراها اختراعاً عراقياً محضاً لا صلة لسكّان جزيرة العرب بها، وأن مفردة العرب تعني الحَرْف ولم تعن جماعة إثنية، وكيف أن العربية تحوّلت اصطلاحاً على يد النحاة في القرن الـ 4 هـ/10 م، من «اللغة بمعناها العام» إلى «اللغة المنسوبة حصراً للعرب».

شعر نبطي تمّت فصحنته

يبدو لافتاً العثور على نقشَيْ «ترنيمة الشمس» الذي يثبت وجود الشعر الحميري في جنوب الجزيرة العربية، و«عين عبده» الذي يثبت أيضاً وجود الشعر النبطي في شمالها، بينما لم تُظهر الأدلة الكتابية وجود الشعر الجاهلي الذي تفترض المصادر المتأخرة أنه كُتب في الفترة نفسها. ويتساءل المؤلّف أيضاً لماذا اختفى الشعر الجاهلي بصورة مفاجئة، تماماً كما ظهر، وكأن حياة البادية والرحلة والأطلال وتقاليد الفروسية انتهت من جزيرة العرب، بخلاف ما تقول المصادر التاريخية.

وهنا، تحضر فرضية الكتاب بأن الشعر الجاهلي استُدعيَ بوصفه الممثل الوحيد للغة العربية القديمة، لإثبات مشروعية القواعد اللغوية التي وُضعت في القرن الهجري الثاني 8 م، وتفسير القرآن، وتاريخ العرب قبل الإسلام، وبعد أقل من قرن لم يعد لهذا الشعر أية وظيفة واختفى من كتب النحو والأدب والتفسير والتاريخ، بشكل مفاجئ كما ظهر.

لكن المؤلف لا يفترض اختلاق آلاف الأبيات من الشعر الجاهلي في فترة زمنية محدودة، وأن يكون هذا الشعر المكتمل من حيث البناء والوزن والمواضيع اخترع من العدم، دون وجود أصل شعري متقدّم عليه. ولحل هذا اللغز، يقول إن القبائل العربية نظمت الشعر بلهجاتها البدوية ودوّنت بعضه بها، ومع ظهور الازدواجية اللغوية مع بداية عصر التدوين، تم نقل الشعر من اللغة العامية إلى اللغة الفصحى، حيث أعاد رواة الشعر والإخباريون واللغويون في العراق تحويل الشعر النبطي بمواضيعه وأوزانه إلى شعر منظوم بالفصحى، كونهما يتطابقان في المعنى والصورة ويختلفان باللغة من حيث البناء والإعراب. ما عدا الاستشهاد بالنقوش الأثرية التي تدحض وجود نصوص فصحى قبل العباسيين، تظلّ تساؤلات الكتاب على أهميتها محل نقاش مفتوح، ومنها لماذا لم تنجب الجزيرة العربية شعراء بعد انتهاء العصر الأموي وصمتت حتى العصر الحالي، وهو يناقض الوقائع التي تشير إلى نظم الشعر النبطي لأكثر من ألفي عام، لكن توقّف تفصيحه أدى إلى حجبه بعد أن قامت هذه العملية بدورها التاريخي.

تصحيح مصطلحات

مفارقة لغوية قادت عاشور إلى تأليفه كتابه، تعود إلى أواخر سنة 2013، مع سيطرة جماعات مسلحة على بلدة معلولا السورية التي لا تزال ناطقة مع قرى أخرى بالآرامية، مترافقاً مع خروج الناطقين باللغات المهرية والشحرية في اليمن على وسائل الإعلام في سياق الاحتجاجات الشعبية المطالبة بالتغيير السياسي. ليطرح تساؤله كيف استطاعت هذه اللغات النادرة أن تحافظ على بقائها في المنطقة؟ ولم يتهيأ لها ما حظيت به اللغة الفصحى من أسباب التفوق، فهي لغة الشعر والأدب، ولغة الكتابة، ولغة دولة الخلافة، لكن الناطقون بها اختفوا من المدن منذ القرن الثاني الهجري كما يذكر الجاحظ، ومن البوادي مثلما يروي ابن جني!

مسألة أخرى تتعلّق باللحن (أخطاء الإعراب)، إذ لا يجد وجاهة للتفسير الذي يسلّم به اللغويون، ومردّه اختلاط العرب بالشعوب المسلمة الناطقة بلغات أخرى، وهو أمر لا ينطبق على غيرها من اللغات العالم، التي لم يفقد الناطقون بها لسانهم أو يفسد، إنما يؤدي اختلاطهم إلى حدوث بعض التغيرات المحدودة، بحسب الكتاب الذي يورد ما يسميه مجموعة مزاعم أسطورية، قدمتها كتابات العصر العباسي، متمثلةً بأن اليمن مسقط رأس العرب التاريخي، بينما تفنّد النقوش القديمة هذا الزعم حيث اللغات اليمنية القديمة لا صلة لها بالأبجديات العربية، وأن جزيرة العرب هي موطن العرب وحدهم منذ أقدم العصور وأنهم عاشوا في عزلة عن الشعوب المجاورة. لذلك حافظوا على نقاء لغتهم الفصحى، بينما تعكس اللغات والخطوط التي دوّن بها قرابة ألف نقش على امتداد طريق التجارة بين جنوب الأردن وشمال الحجاز، بين القرنين الأول والثالث الميلادي، درجة كبيرة من التنوع اللغوي تركتها قوافل المسافرين باليونانية والآرامية والنبطية والتدمرية والصفاوية والثمودية وغيرها مما تبطل أساس فكرة العزلة. وتكشف نتائج التحليل السابق الارتباط الوثيق بين ظهور القرآن وولادة الأبجدية العربية التي لم يُكتب بها قبل ذلك عبارة واحدة، وكيف «قدّم النص المقدس حلولاً لمشكلات لغوية وكتابية مزمنة، عانت منها القبائل العربية على مدى زمني يقدّر بحوالي 1400 عام سبقت نزوله». وفي إشارة تحمل معناها، يلفت الكتاب إلى لفظة الفصاحة ومشتقاتها التي لم تعرفها النقوش العربية القديمة مطلقاً، ولا وجود لعبارات اللغة الفصحى واللسان الفصيح في جميع الأدلة الكتابية قبل الإسلام، ويرجع أقدم استخدام موثوق للجذر (ف ص ح) إلى القرآن.

القرآن والكتابة

بالنظر إلى عدم وجود أبجدية معيارية موحدة لدى العرب، اهتم القرآن بموضوع الكتابة، ليكون تأسيس دين كتابي أمراً متحققاً في مجتمع تنتشر فيه ديانات وثنية تقوم على الشفاهية، ودعوة لهم إلى «الوحدة في كل شيء تقريباً: الإله، الدين، الكتاب، الدولة، والمجتمع». يتوقف الكِتاب عند ذكر كلمة «عربي» في القرآن في 11 موضعاً، استخدمت فيها جميعاً وصفاً للقرآن نفسه، وتعني الحرف ولا تشير إلى جماعة إثنية، وهو يوجّه خطابه إلى العرب بل لجميع الناس. في القرون الهجرية الثلاثة، يوضّح عاشور أن البرديات التي عُثر عليها لم تكتب بالفصحى بل لغة يسمّيها الدارسون «العربية الوسطى» وتجمع بين السمات القياسية (الفصحى) والعامية، مع سمات من نوع ثالث ليست قياسية ولا عامية، والتي ظلّت مستخدمة حتى اليوم، في التدريس والإعلام والخطب السياسية، والمراسلات، والكتابات الأدبية وغيرها.

ويخلص إلى أن الفصحى نجحت في أن تكون لغة كتابة تستخدمها النخبة، التي اعتبرتها مسألة صناعة هوية إثنية للعرب ضمن صراعهم الشعوبي مع بقية شعوب دولة الخلافة، لكنها فشلت فشلاً تاماً في التحول إلى لغة طبيعية، وحتى يمتلك العرب اليوم لغة عربية حديثة عليهم أن يمتلكوا رؤية حديثة للغة، تناسب العصر، وعلماً حديثاً يمكنهم من دراسة لغتهم، وفهمها بعيداً عن التصورات الأيديولوجية.

مراجعة ضرورية

ينبّه المؤلف إلى أن هناك احتمالاً ضئيلاً لتغيير الفرضية التي يتبناها حول غياب الفصحى عن العرب أربعة عشر قرناً قبل الإسلام، لكن حقل النقاش هذا يخصّ اللغويين المتخصصين، وليس العامة الذين قد يرفضون كلّ ما جاء به الكتاب لمخالفته عقائد ومسلّمات رسخت لقرون، لكن الحديث عن سبل النهوض بالعربية اليوم في خاتمة الكتاب لتكون لغة علم ومعرفة ربما يشكّل مدخلاً ضرورياً يهمّ جميع الناطقين بها.



يرى الفصاحة اختراعاً عراقياً لا صلة لسكّان جزيرة العرب به

عبّرت الفصحى عن صناعة هوية إثنية للعرب ضمن صراعهم الشعوبي

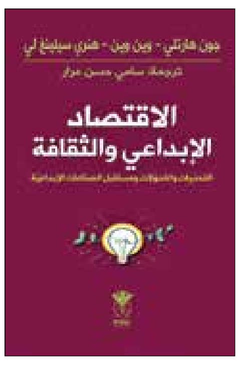


بردية إسلامية تعود إلى عام 42 هـ/ 662 م (موقع متحف اللوفر)

نظرة أولى



عن دار الساقي، صدر كتاب **أقوى من الدول: 6 مليارديرات غيّروا وجه العالم** للكاتبة والصحافية الفرنسية كريستين كيرديلان، بترجمة أنطوان سركيس. يكشف العمل كيف تحوّل ستة من كبار رجال الأعمال إلى قوة تتجاوز الحكومات وتتحكّم بمصير البشرية. فبيل غيتس يسيطر على الصحة العالمية، وإيلون ماسك يرسم ملامح الإنترنت الفضائي وفق مصالحه، ومارك زوكربيرغ يهدد الأجيال الشابة بخوارزميات منصاته. أما جيف بيزوس فيخطّط لحياة بشرية في كبسولات عملاقة، بينما يعمل لاري بيج وسيرغي برين على دمج الإنسان بالآلة في سباقٍ مع الموت.



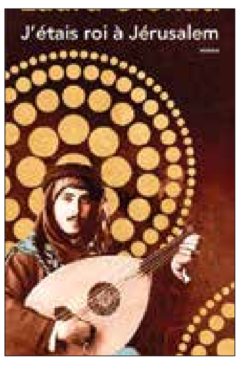
يتناول كتاب **الاقتصاد الإبداعي والثقافة: التحديات والتحولات ومستقبل الصناعات الإبداعية**، الذي يصدر عن دار نينوى، من تأليف جون هارتلي، وين وين، وهنري سيلينغ لي، وترجمة سامي حسن عرار، مفهوم الاقتصاد الإبداعي بديلاً تنموياً يعيد الاعتبار للثقافة والمعرفة والابتكار في تشكيل المستقبل. لا يكتفي المؤلفون بعرض سرد تقليدي لمسار الصناعات الإبداعية، بل يقدمون قراءة نقدية وتطورية تعيد رسم العلاقة بين الثقافة والاقتصاد. ويطرح الكتاب مفاهيم جديدة مثل «السيميوسفير» و«الفرادة الثقافية» و«الإنتاجية الدقيقة» لفهم التحولات المعاصرة.



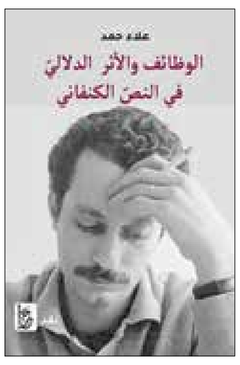
ضمن سلسلة «ترجمان»، صدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات كتاب **ضدّ الليبرالية الرمزية: دعوة إلى علم اجتماع تحاوري**، من تأليف ساري حنفي، وترجمة ياسر الزيات. يقع الكتاب في 344 صفحة، يتضمن سبعة فصول، ويتناول كيفية تشكّل ليبرالية رمزية تنتهك مبادئ الليبرالية السياسية، مع الدعوة إلى مشروع ليبرالي تحاوري. يمزج المؤلف الفلسفة السياسية بالأخلاقية بالنقد السوسيولوجي، ليقدّم مفهوم «الليبرالية الرمزية»، مع توضيح التناقض الذي يتمثل في أفراد يتبنّون المبادئ الليبرالية الكلاسيكية ويتصرّفون بطرائق غير ليبرالية سياسياً.



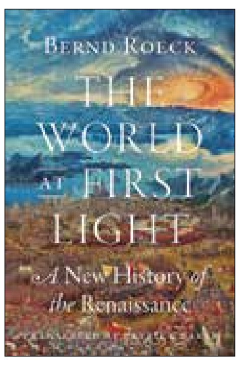
عن دار أبعاد للنشر والتوزيع، صدر كتاب **الأقليات ركن يتصدع بصمت: الموحدون الدروز**، للباحث حسام نصار، وهو دراسة إنثروسوسيولوجية في الثقافة الأساسية لمعتقداتهم الدينية، وموروثاتهم الاجتماعية، وتأثيرها على سلوكهم الجمعي. يناقش فيه الباحث مفاهيم الدين والتدين، بالتركيز على البعد الاجتماعي في تشكيل الخصوصية الثقافية لهذه الجماعة، كما يدرس علاقاتها مع الجماعات الأخرى داخل التركيبة اللبنانية، ويفكك العلاقة بين الهوية الطائفية والعقيدة الدينية، ويشرح نتائج هذه العلاقة في الواقع، بأبعاده الاجتماعية والسياسية.



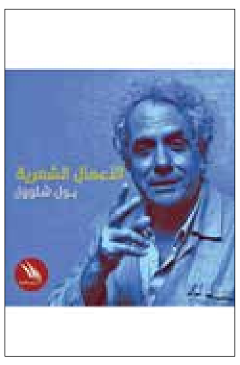
موسيقار وموظّف بلديّة، وعاشق للمتعة، هكذا يتمثّل المؤرّخ والملحّن والفوتوغرافي الفلسطيني واصف جوهريّة في كتاب الفرنسية من أصل إيطالي لورا أولنيتي **كنتُ ملكاً في القدس** الصادر عن أكت سود. يقدّم العمل جوهرية بوصفه شاهداً على زمن كان فيه المسيحيون واليهود والمسلمون جميعاً يلقّبون أنفسهم بـ«أهل الأرض المقدّسة»، سكان مدينة «تختلط فيها وتتناول جميع لهجات البحر المتوسط معاً». على أوتار العود، يعيد واصف إحياء صوت القدس في العقود الأولى من القرن العشرين، بنكهاتها وألوانها الزاهية المنسية، بعيداً عن الصورة النمطية للصراع عليها.



عن دار جبرا للنشر والتوزيع، صدر كتاب **الوظائف والأثر الدلالي في النص الكنفاني** للشاعر والناقد العراقي علاء حمد. يبحث الكتاب، الواقع في 246 صفحة، بالمعنى والتأثير لواحد من أهم الكتّاب المتجذرين في الثقافة الفلسطينية: غسان كنفاني، وبالأخص أعماله الروائية، بالاعتماد على مفاهيم مثل التشريح الكتابي وتوظيف الاستعارات والمبدأ الإشاري. من إصدارات حمد النقدية: «المحسوس وثقافة المتخيل»، والكائن النصي.. اتجاهات النص الحديث، الرمزية، السريالية»، و«أمام جدلية النص.. الجدل الحجاجي، تفعيل التأويل، مبدأ السبب التفاعلي».



العالم عند أول ضوء: تاريخ جديد لعصر النهضة، عنوان الكتاب الذي صدر للباحث بيرند روك عن منشورات جامعة برنستون. يُظهر المؤلف أن إعادة اكتشاف المعرفة القديمة، بما في ذلك علوم العالم العربي في العصور الوسطى، لعبت دوراً حاسماً في تشكيل بدايات الحداثة الغربية. كما يوضح أن عصر النهضة ظهر في جزء من أوروبا حين شكلت الدول والمدن المتنافسة مجتمعات منفتحة نسبياً، وجاء معظم المبدعين في ذلك العصر، من ليوناردو دافنشي ومايكل أنجلو إلى كوبرنيكوس وغاليليو، من الطبقة الوسطى، الذين رسخوا بذور التفكير النقدي والدولة الحديثة والديمقراطية.



عن دار راية للنشر والترجمة، صدرت **الأعمال الشعرية** الكاملة للشاعر والناقد اللبناني **بول شاوول**. تشتمل الأعمال على المجموعات الشعرية ابتداءً من مجموعته الأولى «أيها الطاعن في الموت»، ومروراً بـ«الهواء الشاغر» و«بلا أثر يذكر»، وصولاً إلى «ذلك الجسد»، آخر أعمال الشاعر المنشورة. علماً أن شاوول عمِل في الصحافة الثقافية اللبنانية، وترجم عشرات النصوص الإبداعية لأشهر الكتّاب والشعراء من مختلف الثقافات، أوروبية وآسيوية، بالإضافة إلى إصداره عدداً من الأنطولوجيات الموسوعية، بينها «مختارات الشعر الفرنسي 1900-1985».